

ميخائيل بولغاكوف

مورفين



ترجمة: اسكندر حبش

رواية

طوى
للنشر والإعلام

ميخائيل بولغاكوف



مورفين

رواية

ترجمة: اسكندر حبش



ميخائيل بولغاكوف

مورفين

Book: Morphine
الكتاب: مورفين
Author: Michael Bulgakov
المؤلف: ميخائيل بولغاكوف
المترجم: اسكندر حبش
First Edition: 2013
الطبعة الأولى ٢٠١٣



طوى للثقافة والنشر والإعلام - لندن
TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM
Email: tuwa@london.com
Tel : 00966505481425 - 00966556687678

التوزيع : منشورات الجمل
تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ - بيروت - لبنان

Al-Kamel Verlag
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

I

تروي قصة «مورفين» لميخائيل بولغاكوف - صاحب كتاب «المعلم ومارغريت» - كيف أن طبيب قرية ينتهي به الأمر إلى الانتحار تحت تأثير المخدرات. إنها قصة شخصية جداً، وأكثر تعقيداً من حكايات كتابه الآخر، التي تروي المناخات ذاتها. أقصد «حكايات طبيب شاب». كما أنها أكثر واقعية منها، مثل مشهد تناول الحقنة في حمامات محطة قطارات موسكو، لدرجة أننا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا عن التفكير في أن الكاتب ليس مجرد راوٍ عادي فقط، بل هو أكثر من ذلك بكثير.

في واقع الأمر، تروي الحكاية بأسرها، وبشكل دقيق، مرحلة من مراحل حياة الكاتب، تقع بين عامي ١٩١٦ و١٩١٩. فحتى هذا التاريخ، كان بولغاكوف لا يزال طبيباً متطوعاً في الصليب الأحمر على الجبهة، مع زوجته الأولى تاتيانا لابا، التي تعمل كممرضة، والتي تصف تلك المرحلة بالقول: «كنت أمسك بسيقان الجرحى وهو يبترها. . . كان يبتر

السيقان من الصباح إلى المساء». . . (كلام زوجته هذا تذكره ماريان غورغ في كتابها «ميخائيل بولغاكوف، معلم وقدره»، منشورات روبير لافون، العام ١٩٩٢).

من ثم انتقل من موقعه، ليعمل كطبيب متفرغ تحت تصرف حكومة سمولنسك (بالرغم من أنه كان معفى من الخدمة العسكرية)، فأُرسل إلى قرية نيكولسكوي في شهر أيلول من العام ١٩١٦، وهناك شاهد - في فترة عام واحد - نحو ١٥٣٨١ مريضاً (بحسب غورغ في كتابها الآنف الذكر) مثلما كتب في الاحتجاج الذي صاحبه في رحلته إلى «فيازما».

II

بعد عام من تلك المحادثة، عُيّن في المستشفى البلدي التابع لتلك المدينة. يومها، كان بولغاكوف قد أصبح مدمن مخدرات (على المورفين). السبب الرئيس لطلبه تبديل مكان عمله «اعتماده الذي لا يقاوم» على «الكريات الذائبة». كان ذلك معروفاً من قبل الجسم الطبي بأكمله، في مركز عمله السابق. إذ إن معالجته، لأحد الأطفال هناك - استعمل في العلاج مادة تسمى «خزع الرغامى» - سبّب له نوعاً من الحساسية، لم يكن غير المورفين قادراً على إخماده وتهدئته.

أصبح مدمناً - ومثلما تروي ذلك زوجته الأولى أيضاً،

تاتيانا لابا - اعتاد على تناول حقنتين يومياً. تقول: «ذات يوم في «خيازما»، كنت أبحث عن صيدلية... مشيت لأكثر من ثلاث ساعات... كان ينتظرني في منتصف الشارع، منظره مرعب في تلك الفترة... أجل، أتذكرون الصورة التي التقطت له قبل موته؟ كان كذلك، بالسحنة نفسها، منظره مثير للشفقة، فقد كان بائساً». في نهاية الأمر، نجحت تاتيانا في إقناعه بالرحيل إلى «كييف»، بعد أن قالت له بأن إدمانه قد افتضح في هذا المكان وسيمنعونه من ممارسة حقه في إعطاء الوصفات العلاجية اللازمة. بناء على ذلك، طلب نقله مجدداً، بسبب المرض، فعاد إلى كييف في شباط ١٩١٨. وهناك بفضل نصائح البروفسور فسكرونسكي - زوج أم بولغاكوف الثاني - استطاعت تاتيانا لابا أن تحمله على التخلي عن إدمانه، من خلال تخفيف الجرعة المعتادة تدريجياً، والتوصل إلى إعطائه المياه المكررة بدلاً منها.

فترة حرجة ومؤلمة، أمضاها بولغاكوف، لا لأنه هدد بالانتحار فحسب، وإنما لكونه أطلق النار على زوجته التي رفضت أن تحقنه بالمخدرات بعد أن رمى عليها النفط الذي كان داخل أحد المصابيح. وما ساعد في علاجه أيضاً، كان مناخ مدينة «كييف»، الذي عاد وأحس فيها بالطمأنينة.

III

القسم الأكبر من هذه الرواية الصغيرة، مخصص لليوميات الحميمة التي كتبها الدكتور بولياكوف، وعهد بها إلى الدكتور بومبغارد. وهذا الأمر كان أسلوبا فريدا يعتمده بولغاكوف، في كل مرة يرغب فيها أن يروي شيئاً مثيراً للشبهة، له علاقة بسيرته الذاتية، مثلما جرى الأمر، على سبيل المثال، في قصة «مغامرات طبيب استثنائية»، إذ روى فيها كيف أن طبيباً انتقل من الجيش الأحمر إلى الجيش الأبيض. (عرف بولغاكوف هذه الحالة تقريباً، إذ انتقل من الجيش في بيتلوريا، قبل أن يلتحق بالجيش الأبيض، بعد أن استحال عليه متابعة هربه للخارج).

منذ العام ١٩٢١، روى بولغاكوف عن فترة إدمانه على المورفين هذه، في «المرض» - لكنه عاد وأتلف هذا المخطوط الذي كان من الممكن أن يصبح روايته - وهذه النسخة الأولى من «مورفين» (روايته هذه)، لكنه عاد وكتبها من جديد، وبشكل مختلف، ونشرها العام ١٩٢٧ في مجلة «العامل الطبي».

قد لا يستطيع المرء إلا أن يوافق على جميع التأويلات التي تعلقت بهذا الكتاب: فإذا كان بولغاكوف يتمسك جيداً بهذا النص - وهذا أمر لا شك فيه - فلأنه رغب فعلاً في التعبير - مجازياً - عن مشاعره تجاه «ثورة أكتوبر» وبخاصة

ميلاده الأدبي: «مات الطبيب بولغاكوف» ليحيا «الكاتب بولغاكوف» (مثلما تذكر ماريان غورغ أيضاً).

لكن ولغرابة الأمر، فإن «مورفين» تأتي لتختتم هذه الحلقة. فـ«المورفين» يعود في خاتمة رائعته «المعلم ومارغريت» إذ نجد الشاعر إيفان بزدومين - الذي أصبح البروفسور إيفان نيقولافيتش بونيروف - يحلم وعيناه مفتوحتان، ببيلاطس البنطي وبالمسيح «بوجه سعيد يخون الأحلام... بسعادة كاملة»... بعد أن حقن نفسه بجريمته المعتادة من ... المورفين.

الفصل الأول

مضى زمن طويل منذ أن لاحظ الأذكياء ذلك: السعادة كالصحة، حين ننعم بها، لا نفكر فيها أبداً. لكن ما إن تمضي السنون، حتى يأتي يوم لنعود ونتذكرها فيه، أوّاه كم نتذكرها!

أنتبه الآن كم أنني كنت سعيداً في ذلك الشتاء من العام ١٩١٧ . إنها سنة لا تُنسى: سنة الاضطرابات والبلبلة.

استولت عليّ العاصفة التي هبّت، مثلما تستولي على قصاصة صحيفة، لتحملني من مقاطعة منسيّة إلى مركز الكانتون. ستقولون لي إن المركز ليس بشيء ذي بال! حسن، لو أن أحداً منكم بقي مسمّراً مثلي، محتجزاً مثلي، لسنتين تقريباً، بين الثلوج في الشتاء، ووسط الغابات الضامرة والكالحة في الصيف، من دون أن يغادرها، ولو ليوم واحد، لو أن أحداً منكم كان يفكّ رزمة صحف الأسبوع السابق وقلبه يخفق كقلب عاشق متيّم وهو يفضُّ مغلفاً ذا لون سماوي، لو أن أحداً منكم اجتاز ١٨ فرسخاً[1] على زلاجة، للوصول،

---

(١) مقياس روسي للطول يساوي ١٠٦٧ متراً.

بسرعة، إلى عند امرأة تلد، لكان - هذا الواحد - فهمني بالتأكيد. آمل ذلك.

كان مصباح النفط يشعّ جواً حميماً جداً، بيد أنني شخص يفضل الكهرباء!

ها أنا أعود لأرى مجدداً، هذه اللمبات الكهربائية، الفاتنة جداً! شارع البلدة الكبير، مرصوص جيداً، من جرّاء مزالج الفلاحين، بينما تبدو النظرة، مسحورة، على امتداده، من جراء اللافتات المتنوعة، المعلقة: لافتات تعلن عن أحذية وبسكويت مُذهب وبيارق حمراء، بينما، في مكان أبعد، هناك صورة شاب ذي عينين صغيرتين خنزيريتين، وقحتين، تعلوهما تسريحة شَعر اصطناعية، تشير إلى أنه خلف الأبواب المُزجّجة، يقف حلاق الحيّ، الذي كان على استعداد - لقاء ثلاثين «كوبيكا» - أن يحلق لك ذقنك، ساعة تشاء، عدا أيام العطل، التي تفيض في تقويم وطني العزيز.

اليوم أيضاً، أتذكر برعشة، فُوَط هذا الحلاق التي تعيد إلى ذاكرتك، مكرها، تلك الصفحة الشهيرة الموجودة في كتاب طبيب جلد، ألماني، حيث كانت منشورة - بشكل مُقَنع وواضح - القرحة القاسية التي تُزيّن ذقن أحدهم.

بيد أن تلك الفوط لم تعد تلطخ ذكرياتي!

على مفترق الطريق، يقف شرطي ينبض بالحياة. وفي واجهة إحدى المحلات المغبّرة، نستطيع أن نُميّز بشكل مبهم، صفائح معدنية، في صفوف متراصة، تحوي حلويات تعلوها «كريما» مُشيّطة؛ في حين كانت الساحة الرئيسية مملوءة بنثار العلف؛ بينما يسير الناس، على أقدامهم أو في عرباتهم، وهم يثرثرون؛ أما في الأكشاك، فكانت تباع الصحف الموسكوبية، العائدة إلى اليوم السابق، الحاملة أخباراً مثيرة. في مكان ليس ببعيد عن هنا، كانت تدوي نداءات قطارات موسكو التي تتبادل رنين صفاراتها للتحية. باختصار، إنها الحضارة، بابل، رثاية[٢] نيفيسكي.

أما في ما يتعلق بالمستشفى، فلا شيء يقال. إذ فيه قسم للجراحة، وآخر للطب العام، وثالث للأمراض السارية. كذلك يضمّ قسماً للتوليد. إنه مزوّد أيضاً بصالة عمليات، تلمع فيها آلة تطهير ذات حنفيات فضيّة اللون، برّاقة، في حين تُظهر طاولاتها حُسنَ تنظيم قوائمها وأسنانها وبراغيها. هناك أيضاً رئيس أطباء وثلاثة أطباء داخليين، غيري أنا. أضف إلى ذلك، مأمور الصحة وقابلات وممرضة وصيدلية ومختبر تحاليل. أتدركون هذا! مختبر ذو مِجهر من ماركة «زيس» وبطارية ضخمة للتلوين.

---

(٢) فن الرسم المنظوري.

كنت أقفز فرحاً، أرتعش. إذ كانت هذه الانطباعات، الجديدة، تضغط عليّ بأسرها. يلزمني وقت طويل، قبل أن أعتاد على النور الكهربائي، الذي ينبثق فجأة، في ساعة محدّدة، ليغمر المباني الغارقة في غسق شهر ديسمبر.

كان النور يعميني. المياه تغلي وتهدر داخل المغاطس التي يطفو فيها محراث الخشب القذر قبل أن تعود وتغرق. من قسم الأمراض المُعدّية المخصص للأطفال، تتناهى إلى أسماعنا، طوال النهار، تنهيدات فجائية وبكاء ضعيف يذيب القلب، كما قرقرات صاحلة[٣]...

الممرضات المنهمكات يركضن في جميع الاتجاهات.

لقد تخلصت روحي من ثقل عظيم. لم أعد أحمل على كاهلي قدر كل ما يمكن له أن يحدث في هذا العالم. لم أعد أشعر بأنني مسؤول عن أي اختناق. لم أعد أقفز إذا ما وصل مزلاج عليه امرأة تحمل طفلها المصاب بالاعياء. لم يعد يعنيني الجناب المتقرح الذي يتطلب تدخلا مني. للمرة الأولى، بدأت أشعر بأنني رجل، تنحصر مسؤوليته العتيدة، في حدود معينة. أهناك عملية ولادة؟ من فضلكم، أترون ذلك المبنى، هناك، في آخر الممر؟ أترون تلك النوافذ ذات الستائر

---

(٣) صوت أجش.

الشاشية؟ ستجدون هناك الطبيب المولّد، إنه رجل سمين، لطيف، أصلع تقريباً، ذو شاربين صهباوين صغيرين. إنه المسؤول عن حالة كهذه. اذهب أيها المزلاج، تابع سيرك حتى الطاقة ذات الستارة البيضاء! أهناك كسر ذو مضاعفات؟ إن رئيس الجراحين مسؤول عن ذلك. هل من احتقان رئوي؟ اذهبوا إلى قسم الطب العام، فهذا من اختصاص فلاديمير ووفيتش.

آه! أي آلة مهيبة، هذه التي تدعى مستشفى كبيراً، وبخاصة حين تسير بانتظام، حيث كل شيء في مكانه. كبرغي جديد، أخذ قياسه مسبقاً، وُضعت على رأس الجهاز المكلف بطب الأطفال. كان الخناق والحمى القرمزية يمتصانني بشكل كامل، ويستوليان على أيامي كلها، على نهاراتي فقط. إذ عدت لأمضي لياليّ نائماً. لم أعد أخشى سماع دويّ تلك الضربة المميتة، على بابي، في الليالي المظلمة، التي بامكانها أن تجعلني أنهض من سريري، لتأخذ بي، في الظلام، نحو الخطر ونحو الذي لا مفر منه. عدت لتخصيص أمسياتي للقراءة (وبالطبع كنت أقرأ كتباً عن الخناق والحمى القرمزية بالدرجة الأولى، ومن ثم كنت أهتم بمؤلفات فينيمور كوبر بشكل مدهش). كنت أثمن قيمة هذا المصباح، الحقيقية، الموضوع على طاولتي، بينما الجمرات الرمادية على صينية

السماور، في حين بدأ الشاي يتبرد. بعد سنة ونصف من السهاد، حان وقت النوم.

هكذا كانت سعادتي في ذلك الشتاء من العام ١٩١٧، بعد أن تلقيت أمراً بنقلي من مقاطعة ضائعة، عالقة بين الريح والثلج، إلى مركز «الكانتون».

الفصل الثاني

مضى شهر وتبعه الثاني ثم الثالث. انتهى العام ١٩١٧، وها هو شهر فبراير من العام ١٩١٨. كنت اعتدت على وضعي الجديد، وبدأت أنسى شيئاً فشيئاً مقاطعتي البعيدة. بدأ يتلاشى من ذاكرتي المصباح الأخضر الذي ينش النفط، كذلك الوحدة وركام الثلج...

كم كنت جاحداً! لقد نسيت وقع المعركة، حيث - وحيداً وبدون مساعدة من أحد - ناضلت بكل قواي الذاتية ضد الأمراض، على غرار أبطال فينيمور كوبر الذين يخرجون منتصرين من أكثر الأوضاع مأساوية.

حين كنت أدخل السرير، وكلّي أمل في أن أغفو في الحال، يحدث أحيانا، أن تجتاز بعض فضلات الذكريات، وعيي المتكرر. يأتيني ضوء المصباح الأخضر، الفانوس الذي يثقب العتمة بضوء خاطف، صرير مزلاج، تأوه قصير، ومن ثم الظلمات ونعيب العاصفة الأصم في السهول القاحلة...

كان ذلك كله، يتأرجح ويغور في بئر بلا قرار.

«أشعر برغبة ملحة في معرفة ذاك الذي خلفني هناك؟ بالتأكيد جاء أحدهم... طبيب شاب من طرازي... حسن، مهما يكن، فقد أديت، أنا، خدمتي. إننا الآن في شهر فبراير. لنقل مارس وأبريل وحتى مايو، وبعدها تنتهي فترة تدرجي. يعني هذا، أنه في نهاية شهر مايو، سأغادر مدينتي البراقة وسأعود إلى موسكو. وإذا ما حملتني الثورة على جناحها، من الممكن أن أسافر مرة أخرى. لكن الأمر اليقين، هو أني لن أشاهد مقاطعتي مجدداً، ما دمت على قيد الحياة... مطلقاً... العاصمة... العيادة... الإسفلت...»

بهذا الشكل كنت أحلل الأمور.

«... في جميع الأحوال، كان من المفيد لي، قضاء فترة، في تلك المنطقة... أصبحت رجلاً مطمئناً... لا أخاف شيئاً... فمن لم أعالج؟ حقاً! من؟ بالتأكيد، لم أعالج الأمراض النفسية، بيد أن ذلك الخبير الزراعي الذي يشرب كالمجنون... حسن، حاولت علاجه، بلا نجاح يذكر، عليّ الاعتراف بذلك. فحالته لم تكن سوى حالة نفسية. عليّ أن

أقرأ بعض كتب التحليل النفسي... ومن ثم إلى الجحيم... سنرى ذلك فيما بعد في موسكو...

حالياً، عليّ الاهتمام بأمراض الأطفال... أمراض الأطفال أبداً ودائماً. عليّ الاهتمام بالوصفات التي سأقدمها لهم، بخاصة. إنه عمل شاق حقاً... ليأخذه الشيطان... ما مقدار جرعة البيراميدون التي علينا وصفها لطفل في العاشرة من عمره؟ ٠,١ غ أم ٠,٠١ غ؟ لم أعد أعرف. وإن كان في الثالثة من عمره؟ عليّ الاهتمام بأمراض الطفولة... أمراض الطفولة فقط ولا شيء سواها... كفى صدفة، كفى جنوناً! وداعاً يا مقاطعتي... هذا المساء، لا ترغب في تركي بسلام وأتساءل عن السبب؟ الضوء الأخضر... مهما يكن من أمر، انتهيت من تسديد ديوني... كفى... لأنم...»

«رسالة إليك. لقد حملها أحد المسافرين معه.

- أعطينيها».

وقفت الممرضة على مدخل الشقة. كانت تضع معطفاً ذا ياقة مفتتة فوق قميصها الأبيض الحامل علامة المستشفى. ثمة ندف ثلج بدأت تذوب فوق المغلف الأزرق الغامق، البخس الثمن.

«هل أنت من يناوب الليلة في قاعة الاستقبال؟ سألتها وأنا أتثاءب.

- أجل.

- أليس هناك أحد؟

- كلا، المكان مقفر.

- إذا (كان التثاؤب يمط لي فمي، ولم أتعب نفسي بأن ألفظ، بشكل صائب، الكلمات التي كنت أستعملها...) إذا جاء أحدهم، اجلبيه إلى هنا... أريد أن أنام.

- حسن. هل أستطيع الانصراف؟

- أجل انصرفي».

ابتعدت. صفق الباب، وعدت إلى غرفة النوم، مجرجراً قدميّ في خفيّ، في حين كنت أمزق المغلف، بأصابعي، بشكل عشوائي.

وجدت داخله استمارة مدعوكة، وعليها ختم مقاطعتي الأزرق، ختم مستشفاي. استمارة لا تنسى.

ابتسمت بسخرية...

«أمر غريب ... أمضيت طوال السهرة وأنا أفكر في

مقاطعتي، وها أنها تجيء إليّ شخصياً، لتذكّرني بتلك الأيام... ربما مجرد حدس...»

تحت الختم مباشرة، كانت هناك وصفة مكتوبة بقلم حبر وباللغة اللاتينية. كلمات غير مقروءة وممحوة...

«لا أفهم شيئاً من هذه الوصفة... لا بداية لها ولا نهاية. همهمت وتوقف نظري عند كلمة مورفين... ما الغريب في ذلك؟ آه نعم... إنه محلول بنسبة ٤ بالمئة! من يستطيع أن يصف محلولاً بهذه النسبة؟ لماذا؟»

أدرت الورقة وتوقفت عن التثاؤب. على ظهرها ثمة كتابة ضخمة، متراخية، خطها أحدهم بالحبر، يقول فيها:

١١ شباط (فبراير) ١٩١٨

زميلي العزيز!

اعذرني بسبب كتابتي لك على هذه الخرقة. ما من ورقة أخرى تحت يدي. أعاني من مرض خطير، من مرض قذر. لا أحد يستطيع مساعدتي، في جميع الأحوال. لا أرغب في البحث عن سواك كي يساعدني، أياً يكن هذا الشخص.

مضى شهران، منذ أن استلمت منصبك القديم وأعرف أنك موجود في مدينة صغيرة قريبة من هنا نسبياً. باسم صداقتنا، وباسم سنواتنا في الجامعة، أطلب منك المجيء لرؤيتي بأقصى سرعة؛ ليوم واحد. لساعة واحدة. وإذا وجدت أنه محكوم عليّ بالاعدام، فسأصدقك. بيد ان الوقت ربما لم يفت بعد. أجل، ربما يمكنك إنقاذي؟ أثمة بريق أمل يلمع من أجلي؟ لا تخبر أحداً، أرجوك، بفحوى هذه الرسالة.

«ماريا! اذهبي حالاً إلى غرفة الاستقبال وقولي للمرضة المناوبة أن تأتي حالا... ما اسمها؟.. حسن، لقد نسيت.. على أي حال، إنها الممرضة التي جلبت لي الرسالة.

- حالاً.»

بعد عدة دقائق، كانت الممرضة تقف أمامي، وندف الثلج تذوب فوق فروة الهرة، المسلوخة، التي استخدمت كياقة لمعطفها..

«من أحضر الرسالة؟

- لا أعرف اسمه. إنه رجل ملتح يعمل في التعاونيات، قال إنه ذاهب إلى المدينة.

- هم.. حسن، تستطعين الانصراف. لحظة، انتظري. أريد أن أكتب رسالة إلى الطبيب المسؤول. ستحملينها له من فضلك، وأعيدي لي جوابه.

- حسن!»

كتبتُ إلى الطبيب المسؤول الكلمة التالية:

١٣ شباط (فبراير) ١٩١٨

الجزيل الاحترام الدكتور بافل هيلاريونوفيتش.

استلمت للتو رسالة من الدكتور بولياكوف، زميلي السابق في الجامعة، الذي خلفني في منصبي، في مستشفى غوريبلوفو، حيث يعاني اليوم من عزلة تامة. يبدو أنه أصيب بمرض خطير. أعتبر أنه من واجبي الذهاب لرؤيته. إذا سمحت سأطلب من الدكتور رودوفيتش، أن يحل مكاني، غداً، طوال اليوم، وهو الزمن الذي تستغرقه الرحلة لرؤية بولياكوف. ليس لهذا الرجل أي ملاذ آخر.

احتراماتي

الدكتور بومبغارد.

أجابني الطبيب المسؤول بالكلمة التالية:

«الجزيل الاحترام فلاديمير ميخائيلوفيتش، أسرع»

بيتروف.

أمضيت السهرة وأنا أدرس دليل خطوط سكة الحديد. بإمكاننا الوصول إلى غورييلوفو على الشكل التالي: عليّ أن أستقل، في اليوم التالي، عند الثانية ظهراً، قطار موسكو الذي ينقل البريد، كي أقطع مسافة ثلاثين فرستاً. ومن ثم يجب أن أنزل في محطة رقم ١٧. ومن هناك، ينبغي اجتياز ٢٢ فرستاً على المزلاج كي أصل إلى مستشفى غورييلوفو.

إن حالفني الحظ، سأصل إلى غورييلوفو، غداً مساء؛ هكذا فكرت وأنا أتمدد في سريري. مما يشكو؟ من «التيفوس» أم من احتقان رئوي؟ لا أظن أنه مصاب بأحد هذين الأمرين... وإلا كتب لي ببساطة «أعاني من احتقان رئوي». في الأمر خطب ما، فرسالته مضطربة وتشير إلى ذلك في مكان ما... «الأمر خطير، إنه مرض قذر...» ما مرضه؟ السيفلس؟ أجل، متأكد أنه السيفلس. يرعبه الأمر، يخيفه. يخشاه... لكن، ليس هذا كل شيء... أحب أن أعرف أين سأجد أحصنة كي أذهب من المحطة حتى غورييلوفو؟

وإن لم يحالفني الحظ، سأصل إلى المحطة عند هبوط الليل، عندئذ، لن أجد شيئاً كي أتابع سيري. أبداً، لأتفاءل قليلاً. سأجد وسيلة ما. قد أجد في المحطة أحداً استأجر خيلاً منه. من غير المجدي إرسال برقية له كي يرسل أحداً لاستقبالي، إذ ستصله في اليوم التالي، على وصولي. لن تصل إلى غورييلوفو، عن طريق الجو! ستبقى في المحطة، حتى تتسنى لها فرصة، أن يحملها أحدهم، مسافر إلى هناك. أعرف غورييلوفو هذه جيدا. إنها آخر الدنيا، أجل.

كانت الرسالة المكتوبة على الاستمارة، تقع تحت دائرة الضوء، التي يرسلها المصباح الموضوع على الطاولة، بجانب السرير، قرب المنفضة المولوءة بأعقاب السجائر. إنها رفيقتي المخلصة، حين يغيظني السهاد. لم أتوقف عن الاستدارة، مراراً وتكراراً، داخل شرشفي المجعلك، في حين امتلأت روحي بالحنق. بدأت الرسالة تثير أعصابي.

في الواقع: لم يكن الأمر، أزمة خطيرة، من جراء مرض ما، انما لنقل، من جراء السفلس، فلماذا إذن، لم يأت بنفسه؟ لماذا عليّ أنا، الإسراع إليه، لأتواجه مع العاصفة؟ كما لو أنني، في أمسية واحدة، سأشفيه من «اللوز»[1]؟ أيعاني من سرطان المعدة؟ سرطان؟ أي سرطان؟ إنه يصغرني بعامين. إنه

(١) المرحلة الثانية من السيفلس

في الخامسة والعشرين من عمره. . .«مرض خطير». . . أيعاني من «الغرن»[٢]؟ لم أفهم شيئاً من رسالته . إنها رسالة هيستيرية. رسالة تسبب الصداع للمرسَل إليه. . . على أي حال، لقد أصابني الصداع. أشعر بأن شرياني يشدني من صدغي. . ما يعني، أن غداً صباحاً، حين أستيقظ، سيصل الألم إلى قمة رأسي الذي سيبدو عندها، كأنه عالق داخل مقشطة.

وما إن يحل المساء، لن أجد وسيلة أخرى، غير ابتلاع البيراميدون والكافيين. أتتصورون، كيف سيكون عليه الأمر، فوق المزلاج، بعد ابتلاع البيراميدون! عليّ استعارة فروية مساعدي الخاصة بالرحلات، إذ من دونها، من دون معطف، سأموت من البرد. . . على كل، ما هو مرضه؟ «أثمة بارقة أمل. . .» جملة أشبه بالتي نكتبها في الروايات، وليس في مراسلة جدية بين زميلين.

يجب أن أنام ، أن أنام. . . يجب عدم التفكير في ذلك مجدداً. غداً سيتضح كل شيء. . . غدا.

كبست على قاطع التيار الكهربائي، وسرعان ما غرقت غرفتي في العتمة. . . نم. . . ثمة وخز في صدغي . . . قبل

(٢) ورم خبيث ينشأ في النسيج العام.

أن أعرف لماذا يعاودني، أظن ان ليس لدي الحق، أن أغضب من أحدهم بسبب رسالة خرقاء. إن هذا الرجل يعاني على طريقته، لذلك كتب إلى رجل آخر. حسن. كل شخص يتصرف مثلما يستطيع، مثلما يحس. من المعيب معاتبته بسبب صداع أو بسبب تشويش.

وربما، ما من شيء مصطنع أو رومنسي في هذه الرواية. لم أر سيريوجكا بولياكوف منذ سنتين. أذكره جيداً. كان دائماً شخصاً شديد الحساسية. أجل. لقد أصابه مكروه. ها ان صدغي يتحسن.

أعتقد أن النوم سيغلبني. ما هي آلية النعاس بالضبط؟ قرأت شرحاً لذلك في كتاب عن وظائف الأعضاء... بيد أن ذلك كله يبقى غامضاً جداً. لا أفهم ماذا يعني النعاس... كيف تغفو خلايا الدماغ؟ لا أفهم شيئاً من ذلك كله، والكلام بيننا، لا أدري، لماذا أنا على اقتناع دائم، بأن مؤلف الكتاب، بدوره، ليس متأكداً مما يكتبه. كل النظريات متساوية. ها ان سيريوجكا بولياكوف يبدو بلباسه الأخضر ذي الأزرار المذهّبة، الذي يرتديه الطلاب عادة. ينحني فوق طاولة التشريح، حيث هناك جثة عليها.

إحم.. أجل .. بالطبع .. إنه الحلم.

الفصل الثالث

طق، طق... بوم، بوم، بوم... من؟ من؟ ماذا؟ آه، إنهم يقرعون على الباب، آه، ليحملني الشيطان، إنهم يقرعون على... أين أنا؟ من أنا؟ ما الأمر؟ آه، نعم إنني في المنزل، في سريري... لماذا يوقظونني؟ لهم الحق في ذلك بما أنها مناوبتي. استيقظ يا دكتور بومبغارد. ستفتح ماريا الباب وهي تجر قدميها. كم الساعة؟ إنها الثانية عشرة والنصف. إنه الليل، لم أنم سوى ساعة. كيف حال الصداع؟ لا يزال على حاله.

دق على الباب بنعومة.

«ماذا يجري؟»

شققت الباب الذي يفضي إلى صالة الطعام. شاهدت وجه ممرضة كانت تنظر إليّ في العتمة. سرعان ما لاحظت شحوبها وعينيها الجاحظتين، الزائغتين.

«من جلبوا؟

- طبيب مقاطعة غوربيلوفو، أجابت الممرضة بصوت

أجش، قوي. لقد أطلق النار على نفسه من مسدسه.

- إنه بو- ليا- كو- ف ؟ مستحيل! أهو بولياكوف؟

- لا أعرف اسمه.

- ماذا. .؟ حسن، في الحال. . سأصل حالاً. لتذهبي عند الطبيب المسؤول، أيقظيه حالاً. قولي له إنني أطلب منه المجيء بعجلة إلى غرفة الاستقبال».

ذهبت الممرضة، فاختفت اللطخة البيضاء من أمام نظري. .

بعد دقيقتين، كنت على درج المدخل، حيث ساطتني عاصفة ثلجية خبيثة، جافة وقارسة، إذ تسربت من تحت ذيل معطفي، فجمّدت جسدي المسكون بالخوف.

عبر نوافذ غرفة الاستقبال، كان يلمع نور أبيض يبعث على القلق. على درج المدخل الذي عصف به إعصار ثلجي، أسرعت إلى الطبيب المسؤول الذي كان يحاول جاهداً، الوصول إلى المكان نفسه، الذي كنت أحاول الوصول إليه.

«أهو رجلك ؟ بولياكوف! سأل الجراح وهو يسعل كي يجلو بلعومه.

- لم أفهم شيئاً. أعتقد أنه هو شخصياً» أجبته ونحن ندخل مسرعين إلى الغرفة.

نهضت امرأة متدثرة بأكملها، من على مقعدها للقائنا. ثمة عينان أليفتان، مخضبتان بالدموع، كانتا تنظران إليّ من تحت حانة الشال الأسمر. كانت ماريا فلاسييفنا، القابلة في مستشفى غورييلوفو، مساعدتي المخلصة، خلال عمليات التوليد.

«أهو بولياكوف؟ سألت.

- أجل ، أجابت ماريا فلاسييفنا. إنه أمر مرعب يا دكتور. كنت أرتجف طوال الطريق خوفاً من أن لا أنجح في جلبه إلى هنا.

- متى حدث ذلك؟

- فجر هذا اليوم، همهمت ماريا فلاسييفنا، لقد أسرع الحارس إليّ قائلاً: «سمعت طلقاً نارياً في غرفة الطبيب..»»

كان الدكتور بولياكوف ممدداً تحت نور المصباح، الذي يوزع نوراً سيئاً ومغمّاً. نظرت إلى قدميه، إلى نعليه الهامدين، فبدوا متحجرين... فشعرت بحسرة أليفة في قلبي...

ظهر شعره مبللاً حين سحبت طاقيته عن رأسه. أدخلت يدي تحت جسد بولياكوف، كما فعلت أيضاً الممرضة وماريا فلاسييفنا، فظهرت قطعة شاش بيضاء ملطخة ببقع حمراء مصفرة تحت المعطف. كان يتنفس بصعوبة. تحسست نبضه، فارتعش. تلاشت نبضاته تحت أصابعي.. تمددت، تقطعت مثل حبل ذي عقد متباعدة وهشة. تقدمت يد الجراح صوب كتفه وقرص الجلد الكابي كي يغرز فيه حقنة كافور. في تلك اللحظة بالذات، ارتخت شفتا الجريح الملتصقتان، فظهرت عليهما طبقة رفيعة من اللعاب الدامي، الزهري اللون. وبالكاد استطاع تحريك شفتيه المزرقتين وتهجى بصوت ضعيف جاف:

«دع ذلك. ليذهب الكافور إلى الجحيم.

- اصمت، أجابه الجراح، وغرز الابرة بقسوة، فانساب الزيت الأصفر تحت الجلد

- لقد أصيب الشغاف[1] من دون شك، همست ماريا فلاسييفنا وتشبثت بحافة الطاولة. بدأت تنظر بثبات إلى أجفانه الكبيرة (عيناه مغلقتان). ثمة ظلال رمادية - بنفسجية - تشبه ظلال الرجل الممدد، بدأت بالتلون... شيئاً فشيئاً بدأت

---

(١) قميص القلب.

تتضح قرب التجاويف، مقابل أرنبتي أنفه، في حين كانت تتلألأ بضع قطرات عرق تشبه نقاط الزئبق.

«أهو المسدس؟ سأل الجراح حين شدت له عرّة عصبية وجهه.

- من ماركة براونينغ، همهمت ماريا فلاسييفنا

- ايه... ايه... قال الجراح، الذي بدا فظاً بشكل مفاجئ، مثلما بدا حانقاً... وبحركة تنم عن الاستسلام، ابتعد فجأة.

التفتُّ نحوه، خائفاً، بدون أن أفهم. ومن خلف كتفي، لاحظت قادماً جديداً. لقد وصل طبيب آخر.

حرك بولياكوف جانب فمه، فجأة، مثل رجل نائم يريد طرد ذبابة التصقت عليه. من ثم بدأ فكه السفلي بالتحرك، كما لو أنه كان يختنق من جراء كبة لحم، يريد ابتلاعها في الأساس.

آه! من رأى جراحاً قذرة تسببها الأسلحة النارية - أكانت مسدسا أم بندقية - يعرف هذه الحركة تماماً. أبدت ماريا فلاسييفنا، تكشيرة مؤلمة وتنهدت.

«نادوا الطبيب بومبغارد، قال بولياكوف بصوت خفي.

- إنني هنا، همست قرب شفتيه، فسمعت في صوتي تبدلاً حنوناً.

استجاب بولياكوف

«الدفتر لك. . .» قالها أيضاً بصوت أكثر اختناقاً.

فتح عينيه، ورفعهما إلى سقف الغرفة الكئيبة التي كانت تغرق في العتمة. بدا بؤبؤا عينيه الغامقين كأنهما امتلآ بالنور، في حين شفّ بياض عينيه وازرق. توقفت عيناه عن الحركة، تسمرتا إلى الأعلى، واعتكرتا بسرعة لتفقدا هذا الجمال الهارب.

كان الطبيب بولياكوف قد مات.

إنه الليل. وبشكل أدق، في فترة ما قبل الفجر. لمع المصباح بحيوية، إذ كانت مدينتنا الصغيرة قد نامت، في حين أن التيار الكهربائي، الذي يخدمنا، متوافر بكثرة. كل شيء صامت؛ جثة بولياكوف ترتاح في الكنيسة. إنه الليل.

على الطاولة وأمام عينيّ المحمرّتين من جراء القراءة، ثمة مظروف مفتوح وورقة مكتوب عليها :

«رفيقي العزيز

قررت أن لا أنتظرك بعد، إذ تخليت عن فكرة العلاج. لم يعد لدي أمل. لا أرغب في تعذيب نفسي. لقد حاولت بما فيه الكفاية. إنني أحذّر الآخرين. ليحذروا من المعادن البيضاء المذابة في ٢٥ مكعباً من المياه. لقد وثقت بها جداً لدرجة أنها قتلتني. أهديك يومياتي الحميمة. لقد بدوت لي دائماً شخصاً حشرياً، متقبلاً للشهادات الإنسانية. إن كان ذلك يهمك، فلتقرأ قصة مرضي.

الوداع. المخلص س. بولياكوف».

ثمة حاشية مكتوبة بالخط العريض، فيها:

لا تتهموا أحداً بمقتلي.

سيرغي بولياكوف، طبيب ممارس، في ١٣ فبراير ١٩١٨.

إلى جانب رسالة المنتحر، كان هناك دفتر عادي ذو غلاف أسود لامع، نُزعت منه أوراق القسم الأول. أما القسم الباقي،

فيضم إشارات قصيرة، مكتوبة، في بداية الأمر، بخط صغير، واضح جداً، وبقلم أسود أو بالحبر. بينما في النهاية، فتبدو إشارات مناقضة لذلك، إذ انها مكتوبة بقلم حبر أو بقلم أحمر ثخين. يبدو خطه مهملاً، يذهب في جميع الاتجاهات، وذا اختصارات كبيرة.

الفصل الرابع

٧. . .، في ٢٠ كانون الثاني (يناير)

. . . إنني سعيد جداً بذلك. هذا أفضل: إذ كلما ابتعدت كان ذلك أحسن. لا أستطيع تحمّل رؤية الناس، وفي هذا المكان، لن أرى أحداً سوى الفلاحين والمرضى. بيد أن هؤلاء لا يشكلون خطر إعادة إحياء جروحي. على كل، عديدون هم الذين تصنعوا برغبتهم في بعض المناصب، بالريف، ولا يقلّون شأناً عني. في الواقع، إنهم جميع أفراد دفعتي (كتيبة الاحتياط، خريجي العام ١٩١٦). أما الآخرون، فلا يهتمون بالأمر. أجهل ما أصبح عليه أصدقائي، ما عدا إيفانوف وبومبغارد. لقد اختار ايفانوف حكومة أركانغسك (إنها مسألة ذوق)، أما «بومبغارد»، فقد أخبرتني الممرضة المساعدة، أنه موجود حالياً في «غوريبيلوفو»، وهي حفرة ضائعة شبيهة بمكاني، تبعد عن هنا مسافة ٣ كانتونات. فكرت أن أكتب إليه، إلا أنني لم أفعل ذلك. لا أرغب في رؤية أحد، ول في التحدث إلى أحد.

٢١ كانون الثاني (يناير)

عاصفة ثلجية. لا شيء يستحق الذكر.

٢٥ كانون الثاني (يناير)

كم أن الشمس جميلة وهي تغيب! إن «الميغرينين» هو مزيج من «الانتبيرين» والكافيين وحامض السيتريك، تجده - مسحوقاً - في أكياس، من عيار ١,٠ أهذا ممكن؟ أجل.

٣ شباط (فبراير)

تلقيت اليوم صحف الأسبوع الماضي. لم أقرأها بعد، إلا أنني ألقيت نظرة على الباب المختص بالمسرح. في الأسبوع الماضي، قدمت أوبرا عايدا. لقد صعدت إذاً على الخشبة لتغني «تعال يا حبي ، أثمل روحي بالسعادة!...»

صوتها رائع. أليس من المستغرب أن يكون صاحب هذا الصوت القوي، الصافي بهذا الشكل، ذا روح دنيئة وبائسة؟

(تتوقف الملاحظات هنا إذ اقتُطع من الدفتر صفحتان أو ثلاث)

. . . بالتأكيد، إنه أمر يثير السخط، يا دكتور بولياكوف. إنها حماقة جديرة بالطلاب، في أن نمطر امرأة بالشتائم لمجرد أنها رحلت. لم تعد ترغب في العيش معك، فرحلت. هذا كل شيء. كم أن كل شيء بسيط في الحقيقة! مغنية أوبرا على علاقة بطبيب شاب، عاشت معه سنة ثم رحلت.

أتقتلها؟ نعم؟ آه، كم أن كل شيء صار أحمق وعديم المعنى! بلا أمل.

لا تفكر في الأمر. لا تفكر. . .

١١ شباط (فبراير)

عواصف ثلجية أبداً ودائماً. أرغب في أن تكفنني! أمضي أمسياتي كلها وحيداً، وحيداً بشكل مطلق. أشعل المصباح وأبقى جالساً هنا، أنتظر انقضاءها. خلال النهارات، ألتقي بأناس على الرغم من كل شيء، إلا أنني أعمل بشكل آلي.

لقد اعتدت على العمل. كان أقل رعباً مما توقعت في

البداية. في الواقع ان تجربتي في المستشفيات العسكرية أعانتني كثيراً. إذ لم أكن جاهلاً، تمام الجهل ، حين وصلت إلى هنا.

اليوم، أجريت عمليتي الأولى، بشكل عرضي.

إذاً، إننا ثلاثة أشخاص هنا، مدفونون تحت الثلج: أنا وآنّا كيريللوفنا، المساعدة والقابلة، بالإضافة إلى مساعد آخر. إنه رجل متزوج. يسكنان في الجناح المخصص للعاملين. أما أنا فأعيش وحدي.

١٥ شباط (فبراير)

حدث شيء غريب ليلة البارحة. كنت أستعد للذهاب إلى النوم، حين فاجأتني آلام في المعدة وأي آلام! شعرت بجبهتي تتندى بالعرق البارد. أريد أن أعترف، مع ذلك، بأن الطب عندنا، ليس علماً دقيقاً بعد. إذ كيف أن رجلاً، لا يعاني من أي مرض، لا في معدته ولا في بطنه (الزائدة الدودية مثلاً) وحتى أن كبده بحالة ممتازة مثل كليتيه، كما أن أمعاءه تعمل بشكل أكثر من جيد، يمكن أن يصاب، وسط الليل، بآلام تجعله طريح الفراش؟

ذهبت إلى المطبخ وأنا أتأوه: كانت الطاهية وزوجها «فلاس» ينامان هناك. أرسلته للبحث عن آنّا كيريللوفنا، فارتأت ضرورة حقني بالمورفين. قالت إن لوني كان أخضر بالكامل. تساءلت عما أصابني.

لم يكن مساعدي يروق لي. أجده شخصاً غير محب، في حين أن آنّا كيريللوفنا، شخص لطيف ومثقف. أعجب كيف لا يزال بإمكان امرأة شابة، العيش بهذه العزلة الكاملة، داخل هذا القبر تحت الثلج. كان زوجها سجيناً في ألمانيا.

لا أستطيع إلا أن أثني على ذاك الذي قد نجح، قبل غيره، في استخراج المورفين من الخشخاش. لقد قدّم معروفاً حقيقياً للإنسانية. لقد توقفت الآلام بعد ٧ دقائق من غرز الحقنة. الغريب حقاً، أنها كانت تتابع بإيقاع متسارع من دون أن تتوقف للحظة واحدة. كادت تخنقني كما لو أنهم فتشوا امعائي، بواسطة حديدة محماة. فبعد أربع دقائق من الحقنة، كنت أستطيع تمييز موجات الألم.

من المفيد جداً للأطباء، أن يتمكن، كل واحد منهم، اختبار أكبر عدد من الأدوية، على نفسه أولاً. إذ إنه سيدرك، عندئذ، تأثيراتها. بعد الحقنة، وللمرة الأولى خلال هذه الأشهر الأخيرة، نمت جيداً بعمق، من دون أن أفكر في تلك التي خانتني.

١٦ شباط (فبراير)

سألتني آنّا كيريللوفنا، اليوم، وخلال جولة الزيارات التفقدية، كيف كنت أشعر، كما قالت لي إنها المرة الأولى التي تراني فيها مرتاحاً.

- لماذا ؟هل يبدو عليّ التعب؟

- كثيراً، أجابت باقتناع وأضافت بأن صمتي المستمر صدمها.

- إنها طبيعتي.

كذب ما أقوله، إذ كنت رجلا سعيداً قبل مأساتي الشخصية.

يحل الظلام سريعاً. إنني وحدي في الشقة. عند المساء، عاودني الألم، إلا أنه لم يكن قوياً، كأنه ظلال آلام الأمس. يبدو أنه اليوم، قد اختار موقعاً جديداً، بين القفص الصدري. خشيت أن تعاودني أزمة شبيهة بأزمة البارحة، فحقنت فخذي بنفسي، بسنتغرام واحد.

توقف الألم للحال، تقريباً. لحسن الحظ أن آنّا كيريللوفنا تركت الزجاجة.

١٨ شباط (فبراير)

أربع حقن، يتراءى لي أن الأمر ليس خبيثاً.

٢٥ شباط (فبراير)

إنها غريبة حقا آنّا كيريللوفنا هذه! كما لو أنني لست طبيباً. حقنة ونصف تساوي ٠,٠١٥ غراماً من المورفين؟ أجل.

١ آذار (مارس)

***

كن حذراً يا دكتور بولياكوف.

حماقات.

الفجر.

ها قد مضى ١٥ يوماً، لم أفكر خلالها ولو للحظة واحدة في المرأة التي خانتني. لم أعد مهووساً أبداً بتلك الأغاني التي تؤديها. فخور أنا بذلك. إنني رجل حقيقي.

أصبحت آنّا ك. زوجتي. لا أحد يعلم بذلك. من غير الممكن أن يكون الأمر مختلفاً. إننا سجناء جزيرة قاحلة.

تبدّل لون الثلج، أصبح رمادياً. انتهى موسم البرد الكبير، إلا أن العواصف الثلجية تعود أحياناً.

في اللحظة الأولى، تشعر كأن شيئاً ما يلمس عنقك، من ثم تشعر بسخونته قبل أن يتسع. في اللحظة الثانية، تجتاز موجة باردة قعر بطنك وتمتاز أفكارك بوضوح غير معتاد، كما أنك تشعر، فجأة، بقدرة غريبة على العمل. أفكارك المأساوية تختفي كلها( )

يصل الكائن البشري إلى ذروة قوّته الروحية. ولو لم تفسدني دراستي الطبية، لتجرأت على القول، إنه من غير الممكن أن يعمل أحدهم، بشكل طبيعي، إلا بعد حقنة مورفين. لتحكموا بأنفسكم. بماذا يتميز الإنسان، إن كان ألم عصبي صغير جدير بأن يطرحه أرضاً!

شعرت آنّا ك. بالخوف. طمأنتها، قائلاً لها، إنه منذ طفولتي، أتميز بقدرة إرادة خارقة.

٢ آذار (مارس)

يحكى عن أحداث ضخمة. سيجرّد نيقولا الثاني من عرشه.

* * *

أريد أن أنام باكراً. عند التاسعة.

أنام بشكل عميق وجيد.

١٠ آذار (مارس)

إنها الثورة هناك. أصبحت النهارات أطول، والغسق أخذ لوناً أزرق خفيفاً. ولا مرة، حلمت بمشاهدة هذه الأشياء عند الفجر. إنها أحلام مزدوجة.

الحلم الرئيسي بينها، حلم زجاجي. شفاف

أرى لمبة مضاءة بعنف، ينبثق منها شريط ناري ذو ألوان متعددة. تغني «أمينيريس» وهي تهز بهدوء ريشتها الخضراء.

ليس للفرقة الموسيقية أي شيء أرضي، فكمال مماثل أمر لا يدرك. في حين أن الكلمات عاجزة عن توصيف ذلك. على كل، في حلم طبيعي، تبدو الموسيقى صامتة. .(«طبيعي»؟ ينبغي معرفة أي حلم أكثر طبيعية من الآخر! إنني أمزح) صامتة إذاً، في حين أنني أسمعها، إنها سماوية حقاً. لكن أهم ما في ذلك الأمر، وبحسب مشيئتي، أستطيع أن أرفع أو أن أخفض قوة صوتها. أذكر أنه في رواية «الحرب والسلم»، هناك وصف لبينياروستوف، التي هي امرأة نصف مغمضة، تعيش الحالة ذاتها. إن ليف تولستوي كاتب كبير.

تجيئني الآن، قضية الشفافية: عبر ألوان «عايدة» الزاهية، إذ تظهر بشكل ملموس طرف طاولتي؛ ومن خلال باب مكتبي المفتوح، أشاهد المصباح والأرضية اللامعة؛ خلف مد الموسيقى التي تعزفها أوركسترا مسرح البولشوي، أميز، بشكل واضح، وقع الخطوات التي تطقطق على الأرض بشكل جميل، مثل صناجات صامتة.

هذا يعني أنها الثامنة، وأن آنّا ك. ستوقظني للتو كي تقول لي ما يجري عند المدخل. إنها تجهل أنني لا أنام، وأنني أسمع كل شيء، وأنني أستطيع مكالمتها.

ومع ذلك قمت بالاختبار التالي نهار أمس:

آنّا ك.: سيرغي فاسيليفيتش...

أنا: كلي أذان صاغية... (بصوت خفيض متوجهاً للموسيقى: «بصوت أعلى»)

ثمة تساوق يصدح.

ري، دييز.

آنّا ك. - هناك عشرون شخصاً ينتظرون المعاينة.

أمينيريس تغني.

في الواقع، من المستحيل التعبير عن ذلك عبر الكتابة. أهي خطرة هذه الأحلام؟ كلا. إذ أنهض بعد ذلك ممتلئاً بالنشاط والحيوية. حتى أن العمل بدأ يثير اهتمامي، على العكس من السابق. ما من شيء مستغرب في ذلك، إذ كانت جميع أفكاري منصبّة على زوجتي السابقة.

أنا اليوم مطمئن البال.

نعم، أنا مطمئن البال.

١٩ آذار (مارس)

هذه الليلة تشاجرت مع آنّا ك.

- بدءاً من الآن، لن أحضّر محلولك مطلقاً.

حاولت أن أقفل الأمر.

- لا تتفوهي بالحماقات، يا عزيزتي آنّا. لم أعد طفلاً، في جميع الأحوال.

- كلا، إنك تقتل نفسك.

- مثلما تريدين. أشعر بأوجاع في صدري، ألا تفهمين ذلك.

- عالج نفسك.

- أين؟

- خذ عطلة. فالمورفين ليس دواء.

بقيتْ للحظة حالمة، ثم قالت:

- لن أسامح نفسي على تحضيري لك هذه الزجاجة الثانية.

- إذا، أنا مدمن على المورفين، أليس كذلك؟

- بالضبط، ستصبح كذلك.

- إذاً، ترفضين تحضير ذلك؟

- أجل.

حينذاك، اكتشفت في نفسي، للمرة الأولى، طاقة منفرة تكمن في غضبي السريع وبخاصة، في الصراخ على الناس، حين أكون مخطئاً.

في الواقع لم أصل إلى ذلك، في تلك اللحظة. إذ ذهبت إلى غرفة النوم. ألقيت نظرة على الزجاجة، فوجدت في قعرها بقية قليلة من السائل. حاولت ملء الإبرة، فوصل المسحوق إلى ربعها. غضبت، ورميتها أرضاً، كادت تنكسر، وأحسست بالرجفة. لمستها مجدداً بحذر، تفحصتها، فلم أجد أي شق فيها. بقيت مكاني ما يقارب العشرين دقيقة. وحين خرجت، كانت آنّا قد اختفت.

لقد رحلت.

لم أستطع الصمود - كما تعلمون - فذهبت إليها. طرقت على نافذة مقصورتها المضاءة. خرجت لتقف على درج المدخل، متدثرة بشالها. كان الليل هادئاً، هادئاً جداً، والثلج طريا. في ركن ما، هناك، في السماء، يبدو الربيع قادماً.

«آنّا كيريللوفنا، أرجوك أن تعطيني مفاتيح الصيدلية».

قالت بصوت شبه هامس:

«كلا.

- رفيقة آنّا، أرجوك، أعطني المفاتيح. إنه الطبيب الذي يكلمك الآن».

عبر الظلّ، رأيت وجهها يتبدل، أصبح شاحباً فجأة، غارت عيناها، اكفهرتا، وبدتا كأنهما انقلبتا. أجابتني بصوت أيقظ الشفقة في قلبي.

بيد أن الغضب، استعر فيَّ مجدداً.

هي:

«لماذا، لماذا تحدثني بهذه الطريقة؟ آه يا سيرغي فاسيليفيتش، إنك تثير شفقتي، أتعرف ذلك؟؛

حينذاك، أخرجت يديها من تحت شالها ورأيت أنها كانت تحمل المفاتيح. هذا يعني، أنها لمّا خرجت للقائي، كانت تحملها معها.

أنا (بشكل سوقي):

«أعطني المفاتيح!»

وانتزعتها عنوة من يديها.

توجهتُ بعد ذلك، فوق الأرضية الخشبية النخرة،

المتباعدة قطعها عن بعضها البعض، باتجاه تلك الكتلة البيضاء التي تتألف منها مباني المستشفى.

كان قلبي يستشيط غضباً. أولاً، لأنني لا أملك أدنى فكرة عن كيفية تحضير محلول المورفين، من أجل حقنة جلدية. أنا طبيب لا ممرض!

تابعت سيري وأنا أرتعش.

سمعت خلفي وقع خطواتها، اقتربت مثل كلب وفيّ. اجتاحني شعور من الحنان، كما شعرت بالاختناق. استدرت وقلت لها عابساً:

«أستصنعين لي ذلك أم لا؟»

أشارت بيدها بحركة تشبه حركة المحكوم بالإعدام بأن «الأمر سيان»، وأجابت بهدوء:

«حسناً، سأفعل ذلك...»

... بعد مرور ساعة، عدت إلى حالتي الطبيعية. بالطبع، طلبت منها أن تعذر خشونتي الفظة. أنا نفسي لا أعرف ما الذي أصابني. فمن حيث الظاهر، تلقيت تربية حسنة.

فاجأني ردّ فعلها تجاه اعتذاري. سقطت على ركبتيها، وضغطت وجهها على يدي وقالت:

«لست غاضبة منك. أبداً. أعرف الآن أنك شخص هالك. أعرف ذلك جيدا. إنني ألعن نفسي لأنني أنا من أعطاك هذه الحقنة».

حاولت تهدئتها كيفما استطعت، مؤكداً لها أن لا علاقة لها بالأمر وأنني أنا المسؤول المباشر عن أفعالي. وعدتها، أنه بدءاً من الغد، سأحاول جدياً الإقلاع عن الإدمان، محاولاً تخفيف الجرعات.

«إلى أي درجة وصل إدمانك في هذه اللحظة؟

– لا شيء بتاتاً. ثلاث وحدات من المحلول بمعدل واحد بالمئة».

أغرقت رأسها بين كتفيها وبقيت صامتة.

«توقفي عن تعذيب نفسك!»

... في واقع الأمر، كنت أفهم قلقها. من المعروف أن «المورفيوم الهيدروكلوريكوم» من الأشياء المرعبة حقاً. إذ يعتاد عليه المرء بسرعة. لكن ألا تعني هذه العادة الخفيفة الإدمان على المورفين؟

... الحق يقال، إن هذه المرأة، هي الكائن البشري

الوحيد المتبقي لي والذي يعنيني بحق. هذا صحيح. كان عليها، في العمق، أن تكون امرأتي. لقد نسيت الأخرى. نسيتها. على كل، وبالرغم من كل شيء، شكراً للمورفين.

٨ نيسان (أبريل) ١٩١٧

إنه عذاب حقيقي.

٩ نيسان (أبريل)

الربيع مرعب.

إبليس في قارورة. الكوكايين هو إبليس في قارورة.
يكون مفعوله على الشكل التالي:

بعد حقنة ذات وحدة من المحلول بمعدل ٢ بالمئة، تشعر رأساً بإحساس بالطمأنينة سرعان ما يتحول إلى حالة من النشوة والغبطة. يستمر ذلك، لدقيقة أو اثنتين، على الأكثر. من ثم

يختفي كل ذلك من دون أن يترك أثراً، كأن شيئاً لم يكن. يجتاح الألم والرعب والظلمات كل شيء. يزمجر الربيع، تطير عصافير سوداء من غصن أجرد إلى غصن آخر، وفي البعيد، تظهر غابة شائكة، سوداء الأغصان، مكسرة، متجهة نحو السماء، وخلفها - بعد أن تكون قد اجتازت ربع الأفق - يشتعل أول مغيب للشمس الربيعية.

ذرعت غرفة عملي الواسعة والفارغة، مستوحداً، تابعت الخط القطري من الباب إلى النافذة ومن النافذة إلى الباب. كم من مرة أستطيع القيام بهذه النزهة؟ ١٥ أو ١٦ مرة لا أكثر. عليّ - فيما بعد - أن أبدل مساري وأن أذهب إلى غرفة النوم. الحقنة موضوعة إلى جانب القارورة فوق شاش الجراحة. أمسكت بها، وبعد أن دهنت «اليود» بإهمال، على ساقي المثقوبة من جميع الجهات، غرزت الإبرة في اللحم. لم أشعر بأي ألم. أواه، على العكس: أسرعت إلى النشوة التي ستلفني بعد لحظة. ها هي تصل. عرفت ذلك لأن أنغام «الأكورديون»، التي يعزفها الحارس «فلاس» - السعيد من مجيء الربيع - وهو جالس على درج المدخل. كانت تلك الأنغام المتنافرة والفظة، تتحول إلى أناشيد ملائكية، بينما أصوات الأنغام الغليظة الخشنة التي تخرج من آلات النفخ ترن مثل كورس سماوي.

لقد حانت اللحظة التي يتحول فيها الكوكايين إلى شيء جديد في الدم، إذ ما من أحد يعرف عبر أي قانون سري يحدث هذا، بالإضافة إلى أن ما من استمارة في علم العقاقير تشير إلى ذلك. أعرف: إنه الشيطان الذي يمتزج فيه. يخبو «فلاس» الجالس على المدخل وأكرهه. أما الجالس المضطرب، الذي ينبح، فيشد لي مصيري. هذا ما قمت به لمرات عدة، متلاحقة، خلال السهرة، لغاية أن تيقنت من تسممي. بدأ قلبي يخفق بشدة لدرجة أنني أحسست به بين يدي، بين صدغي... من ثم سقط في حفرة، حتى شعرت للحظات بأن الطبيب بولياكوف لن يعود ليجد طعماً للحياة.

١٣ نيسان (أبريل)

أنا، الطبيب بولياكوف التعس، الذي أصبح مدمناً على المورفين في شهر شباط (فبراير) من هذا العام، أحذّر كل الذين سيعرفون مصيراً مشابهاً لمصيري، بأن لا يستبدلوا المورفين بالكوكايين. الكوكايين هو أكثر السموم سفالة وأكثرها خداعاً. البارحة، جاهدت آنّا طويلاً في جعلي أستعيد وعيي عبر الكافور، لدرجة أنني أصبحت اليوم جثة متحركة.

٦ أيار (مايو) ١٩١٧

مضى وقت لم أكتب فيه يومياتي الحميمة. إنه أمر أشبه بالكارثة. مع احترامي لما أفعله، فهذه ليست يومياتي، إنها قصة مرض، إذ لديّ - وهذا أمر بديهي - انجذاب مهني لصديقتي الوحيدة في هذا العالم (باستثناء آنّا، صديقتي الحزينة، التي غالباً ما تبكي).

إذاً، إن كنت أكتب قصة مرضي، فهاكم هي: أحقن نفسي بالمورفين لمرتين يومياً، الأولى عند الساعة الخامسة بعد الغداء، والمرة الثانية، عند منتصف الليل، قبل أن أنام.

تبلغ سعة المحلول ٣ بالمئة، أي ما يشكل وحدتين في النتيجة. هذا يعني، أنني أتلقى في حقنة واحدة ما مقداره ٠,٠٦.

لا بأس بذلك.

تشير ملاحظاتي السابقة إلى هستيريا ما. لا شيء هنا خطير جداً. ليس لذلك أي انعكاس على قدرتي بالعمل، بل على العكس من ذلك، تجعلني حقنة الليلة السابقة أتماسك طوال النهار التالي. أتصرف بشكل مدهش في كل العمليات الجراحية التي تجري، أنتبه بشكل لا مأخذ عليه إلى الوصفات

التي تُكتب حتى أنني أستطيع إبداء رأيي كطبيب بدون أن يؤثر إدماني على مرضاي ولا بأي شكل من الأشكال. أتمنى أن أستمر على هذه الحال. بيد أن شيئاً آخر يعذبني. يتراءى لي دوماً أن أحداً ما سيكتشف عيبي. خلال الاستشارة الطبية، أشعر في ظهري، نظرة مساعدي الثقيلة.

هراء! إنه لا يشك في أي شيء. لا شيء يمكنه أن يفضحني. لا تخونني حدقتاي إلا في المساء، وعند المساء، لا ألتقي به أبداً. تداركت النقص الحاد في احتياط المورفين، في صيدلية المستشفى، بذهابي إلى المسؤول. لكنني شعرت هناك أيضاً بلحظات أليمة. بحذر، استلم مأمور المستودع استمارة الطلب التي أضفت عليها أنواعاً كثيرة من الأدوية غير المؤذية، والتي تحتوي على الكافيين - (لدينا كميات كبيرة منها)- فقال:

«أربعون غراما من المورفين؟»

عندها أحسست بأن نظرتي تتوارى كمثل نظرة طالب مدرسة. شعرت بأنني بدأت بالاحمرار...

تابع:

«ليس لدينا هنا كمية مماثلة، سأعطيك عشرة غرامات».

هذا صحيح، الكمية غير موجودة، إلا أنه تراءى لي، أنه اكتشف سري في وضح النهار، وأنه يتفحصني بنظرته التي تدخل أعماقي، أقلقني ذلك وجعلني أتعذب.

لا، الحدقتان، وحدهما الحدقتان هما مكمن الخطر. لذلك قررت أن أفرض على نفسي، دائماً، القاعدة التالية: تجنب النظر إلى أي يكن في المساء. بهذا الشأن، كان من المستحيل أن أجد مكاناً ملائماً أكثر من مكان عملي. لذلك، ها أنا منذ ستة أشهر، لا أرى أحداً، باستثناء مرضاي الذين ليس لي أي علاقة بهم.

١٨ أيار (مايو).

ليل خانق. ستهب عاصفة. بدأ جوفها الأسود، خلف الغابة، في البعيد، بالامتلاء والانتفاخ. ثمة برق شاحب ومقلق. العاصفة تقترب.

بين يدي كتاب، قيل فيه، بشأن استعمال المورفين، بأنه يمكن أن يسبب: «اضطراباً كبيراً، حالة من القلق والكآبة، حساسية متفاقمة، بلبلة في الذاكرة، وأحياناً، بعض الهلوسات وفقداناً خفيفاً في تيقظ الوعي...».

لم أشعر أبداً بالهلوسة، أما فيما يخص ما تبقى من توصيف، أستطيع أن أقول التالي: آه، كم أن هذه الكلمات كامدة ومصطنعة ولا تعني شيئاً!

«حالة من الكآبة.»

أبداً. أنا المصاب بهذا المرض الرهيب، أنبّه الأطباء لأن يكونوا أكثر رأفة بمرضاهم. إنها ليست «حالة من الكآبة»، بل إنه الصوت البطيء الذي يستولي على المدمن إن حرم لساعة أو لساعتين من المورفين. عندها لا يعود باستطاعته تنشق الهواء، ابتلاعه، وما من خلية في جسده، لا تكون عندها متعطشة... لأي شيء؟ من المستحيل تحديد ذلك أو شرحه. باختصار، لا يعدّ عندها الكائن البشري على قيد الحياة. إنه خارج الدائرة. إنه جثة تتحرك، تفتر، تتألم. جثة لا تريد شيئاً، لا تفكر في شيء، إلا في المورفين. المورفين.

الموت من العطش نعمة، إنه موت سعيد مقارنة بالموت عطشاً إلى المورفين. بدون شك، هذا ما يتطلع إليه، شخص دُفن حياً، حين يمتص من قبره، آخر جرعات الهواء وحين يفرك صدره بأظافره. بهذا الشكل أيضاً يتحرك الهرطوقي، ويصارع النار، حين تبدأ ألسنتها بلمس قدميه...

الموت الجاف، الموت البطيء...

هذا هو المعنى الخبيء تحت هذه الكلمات المعرفية «حالة من الكآبة».

لم أعد أحتمل. وها أنا، لم أعرف كيف أقاوم، لذلك حقنت نفسي للتو. أتنهد. أتنهد مرة أخرى.

تحسنت الحال. آه، ها هو... ها هو... لسعة البرد الخفيفة، المشبعة بالمنتول، التي تحس بها في قعر بطنك...

ثلاث وحدات من المحلول بدرجة ٣ بالمئة. يكفيني ذلك حتى منتصف الليل.

هراء. هراء ما أكتبه. لا يبدو الأمر مرعباً إلى هذا الحد. عاجلاً أم آجلاً، سأبلغ مرادي! لكن، في هذه اللحظة، لا أرغب سوى في النوم، لا شيء سوى النوم.

ليس لهذا الصراع الغبي ضد المورفين إلا نتيجة واحدة: تعذيب نفسي وإضعافها.

(ثمة ما يقارب العشرين صفحة قد نُزعت من الدفتر)

. . . بر . . . .

أتقيأ مجدداً عند الرابعة والنصف صباحاً.

عندما أشعر بتحسن، سأعود لكتابة ملاحظاتي المرعبة.

١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧

ها أنا إذاً، وبعد هربي من موسكو من عيادة الطبيب . . . . (شطب الاسم بشكل واع)، في منزلي من جديد. إنها تمطر بغزارة بينما ستارة المطر تخفي عني العالم. من الأفضل أن تخفيه عني. لم أعد بحاجة إليه البتة، مثلما لا أحد هنا، في الأسفل، بحاجة إليّ. حدث الانقلاب وعمليات الإعدام بينما كنت في العيادة. . . بيد أن فكرة التخلي عن العلاج قد نضجت، غدراً، في داخلي، قبل المعارك في شوارع موسكو بفترة. شكراً للمورفين الذي جعلني شجاعاً. لم أخفْ من أي عملية إعدام. في الحقيقة، ما الذي يخيف رجلاً لا يفكر سوى في شيء واحد، لا يفكر إلا في هذه الكريستالات الساحرة والإلهية. عندما جاءت مساعدتي، مرتعبة بشكل لا يوصف، من أصوات المدفعية. . .

(هناك صفحة ناقصة من الدفتر)

. . . نزعت هذه الصفحة، كي لا يقرأ أحد هذا الوصف المعيب الذي قام به رجل، الحائز شهادة، الهارب مثل لص، الجبان، المتنكر للباسه.

كما لو أن للأمر علاقة بالملابس!

احتفظت بقميص المستشفى. ليس هذا هو المهم. غداة اليوم التالي، وبعد أن حقنت نفسي بإبرة، تمالكت نفسي مجدداً وعدت إلى الطبيب «ن». استقبلني بحنو، لكن خلف هذه الشفقة كان يظهر الاحتقار. وفي تصرفه هذا خطأ كبير. إنه محلل نفسي وعليه أن يفهم أنني لست سيد نفسي دائماً. أنا شخص مريض. ما نفع أن يحتقرني؟ أعطيته القميص.

قال لي:

«شكراً»، وأضاف: «بمَ تنوي القيام به الآن؟»

قلت والمرح يملأني (كنت في تلك اللحظة في حالة من النشوة):

«قررت أن أعود إلى حفرتي الضائعة، في جميع الأحوال،

انتهت إجازتي. أنا مدين لمساعدتك كثيراً، أشعر أنني أفضل حال بكثير. سأتابع علاجي، ما إن أعود إلى هناك.»

أجابني قائلاً:

«أنت لا تشعر بتحسن مطلقاً. حقيقة، من المضحك أن تأتي وتقول لي ذلك. إن نظرة واحدة في حدقتيك تنبئ بكل شيء. إلى من تفكر بالتحدث؟...

- بروفسور، لا أستطيع الإقلاع عن ذلك دفعة واحدة... وبخاصة الآن، مع كل الأحداث التي تجري... لقد شوشتني الأحداث بالكامل...

- لقد انتهت. ثمة سلطة جديدة تحكم الآن. خذ احتياطاتك».

عند هذا الحد، تذكرت كل شيء... الأروقة الزجاجية... الجدران العارية التي طليت بدهان زيتي... كيف كنت أعرج مثل كلب ذي قائمة مكسورة... أنتظر شيئاً... ما هو؟ حماماً ساخناً؟... حقنة صغيرة قذرة من المورفين تبلغ ٠,٠٠٥. جرعات لا تقتل. هذا هو كل شيء... ومع ذلك، لا زلت أشعر باليأس يلقي بكل ثقله مثلما كان يلقيه سابقاً... الليالي الفارغة، القميص الذي مزقته فوق جسدي راجياً منهم أن يتركوني أغادر؟

كلا. كلا. لقد نجحتم في اختراع المورفين، لقد استخرجتموه من رؤوس هذه النبتة الإلهية الجافة والمتكسرة، لذلك، لتجدوا أيضا وسيلة علاج بدون أن تجعلونا نتألم! حركت رأسي بعناد. في هذه اللحظة، نهض نصف نهضة، فأسرعت بغتة، مرتعباً، نحو الباب. تراءى لي أنه كان يرغب في إغلاقه بالمفتاح، خلفي، وإجباري على البقاء، بالقوة، في عيادته.

احمرّت وجنتا البروفسور.

«لست حارس سجن مؤبد، قال ساخطاً. لسنا في «البوتيركا» هنا. ابقَ هادئاً. منذ أسبوعين فقط كنت تتبجح بأنك شخص طبيعي جداً. لكن، في جميع الأحوال، لن أستبقيك أبداً، يا سيدي العزيز، قالها وهو يقلد حركة الرعب التي قمت بها.

- بروفسور، أعد لي العقد[1]. أتوسل إليك، قلت بصوت يرتجف مثير للشفقة.

- أرجوك».

طقطق المفتاح في مكتبه وأعاد إليّ العقد (الذي قلت فيه

---

(١) إنه عقد العلاج الذي لا يزال سارياً لغاية اليوم في بعض المستشفيات الخاصة بالمدمنين والكحوليين.

بأنني ألتزم حتى النهاية، العلاج الذي يدوم شهرين وبأنهم يستطيعون إبقائي، بالقوة، في هذه العيادة، الخ، باختصار كتبت الصيغة المعهودة).

استعدت الورقة بيد ترتجف وخبأتها في أحد جيوبي هامسا:

«أشكرك».

من ثم نهضت كي أمضي. ورحلت.

«أيها الطبيب بولياكوف! كان هذا هو صوته خلفي. استدرت ويدي على مقبض الباب. هذا هو الأمر، قال لي، تراجع عن قرارك. لتعلم جيداً أنك ستعود وتجد نفسك، بعد فترة، في عيادة للأمراض النفسية... وبخاصة ستجد نفسك في حالة أسوأ مما أنت عليه الآن. على الرغم من كل شيء، لقد عاملتك كطبيب. لكن، في المرة القادمة، حين تعود - ستكون في حالة من التشوش الذهني التام. في الواقع، يا عزيزي، ليس لديك الحق أبداً في ممارسة مهنتك، وقد يكون من الجرم الإبلاغ عن حالتك، في مكان عملك.»

ارتعدت فرائصي وشعرت بأن وجهي فقد جميع ألوانه (وان لم يكن يملك أصلاً إلا القليل منها).

«أتوسل إليك، بروفسور، قلت بصوت خفيض، لا تقل شيئاً لأحد... سأطرد من عملي... سأفقد حظوتي عند

المرضى. . . لأي سبب تريد فرض هذا العقاب عليّ؟

- هيا، صرخ في وجهي، مغتاظاً. لن أقول شيئاً. في كل الأحوال سيعيدونك إلى هنا. . .»

رحلت، وأقسم لكم، إنني طوال الرحلة، كنت أشعر بوخز الألم والعار. . . لماذا؟

الأمر بسيط جداً. آه يا صديقي، يا صديقي المخلص، يا دفتر يومياتي. أنت، على الأقل، لن تخونني؟ الخطير في الأمر، ليس في كوني سرقت طقماً، بل في سرقتي المورفين من العيادة. ثلاثة مكعبات كريستالية وعشرة غرامات من المحلول بنسبة ١ بالمئة.

ما يهمني، ليس ذلك، بل شيء آخر. كان المفتاح فوق الخزانة. وماذا لو لم يكن موجوداً فوقها؟ هل كنت خلعت الخزانة أم لا؟ ماذا؟ من دون كذب؟

لقد خلعتها.

هكذا أصبح الطبيب بولياكوف سارقا. سيكون لدي الوقت الكافي لأمزق هذه الصفحة.

لكن في ما يخص ممارسة المهنة، أجد أنه بالغ في ذلك. أجل، أنا شخص منحط. بالضبط أنا هكذا. لقد أضر بي انهيار شخصيتي الأخلاقية. لكنني أستطيع العمل، لست جديراً بأن أسبب الأذى أو أن أضر أي مريض من مرضاي.

في الواقع، لماذا ارتكبت السرقة؟ الأمر بغاية البساطة. كنت مقتنعاً أنه خلال المعارك وكل الفوضى التي أعقبت الانقلاب العسكري، بأنني لن أجد المورفين في أي مكان آخر. لكن ما إن هدأت الأحوال، حتى وجدت في إحدى الصيدليات المحيطة بالمنطقة، ١٥ غراماً من المحلول ذي نسبة لا تتجاوز الواحد بالمئة - وكان ذلك أمراً عديم الجدوى ومنفراً بالنسبة إليّ (عليّ أن أحقن نفسي بتسع وحدات!). على أي حال، أذللت نفسي أكثر من أي شيء آخر. لقد أصر الصيدلي على أن أختم له الطلب وقد نظر إليّ نظرة قاتمة ومريبة. لكن وبخلاف ذلك، في اليوم التالي، وبعد أن عدت إلى حالتي الطبيعية بشكل كامل، حصلت - ومن دون أدنى مشكلة - على عشرين غراماً كريستالياً من صيدلية أخرى - وكان ذلك بناء على طلبية كتبتها من أجل المستشفى (وبالطبع أضفت عليها، في الوقت عينه، طلبية من الكافيين والأسبرين). نعم. في نهاية النهايات، لماذا عليّ أن أختبئ، أن أشعر بالخوف؟ ومع ذلك، فالأمر صحيح، هل أحمل على

جبهتي علامة تقول إنني مدمن على المخدرات؟ من سيشعر، في نهاية الأمر، بالانزعاج من ذلك؟

وهل التلف كبير إلى هذا الحد؟ سأجعل من ملاحظاتي هذه شاهداً. صحيح أنها غير مترابطة لكنني لست كاتباً، في نهاية الأمر، أليس كذلك؟ هل أنها تحتوي على أفكار عديمة المعنى؟ برأيي أنا أفكر بطريقة سليمة بالمطلق.

يملك المدمن على المورفين ميزة لا يستطيع أحد أن يلاحظها: قدرته على العيش بمفرده بشكل كامل. والوحدة - وهذه من الأفكار المهمة، البليغة - تقودنا إلى التأمل والطمأنينة والحكمة...

ينساب الليل، أسود وصامتاً. في مكان ما، هناك الغابة العارية، وخلفها يجري النهر الصغير، الصقيع، الخريف. في البعيد، البعيد جداً، تقبع موسكو الصاخبة والمتحررة من قيودها. لا شيء يثير اهتمامي، لست بحاجة إلى أي شيء، لا رغبة لي في التحرك. تحترق، شعلة في مصباحي، تحترق على مهل، أريد أن أرتاح بعد مغامراتي الموسكوبية، أريد أن أنساها.

وقد نسيتها.

نســــيتها.

١٨ تشرين الثاني (نوفمبر)

جليد أبيض. الطقس أصبح أكثر جافاً. خرجت لأسير بضع خطوات باتجاه البحيرة، فوق الدرب الترابي، لأنني لا أتنشق الهواء تقريباً.

تفتت الشخصية أم لا، إلا أنني، مع ذلك، أقوم بمحاولات كي لا أترك نفسي تنهار. على سبيل المثال، لم أغرز الإبرة هذا الصباح (أتناول حالياً ثلاث إبر في اليوم، تحوي كل واحدة منها، ثلاث وحدات من المحلول، بنسبة ٤ بالمئة). ليس ذلك بالأمر السهل. أحسد آنّا. تقتلها كل زيادة في نسبة الجرعة. أشفق عليها. آه، أي كائن هي!

أجل... هكذا... ها هو الأمر... عندما بدأت تسوء حالتي، قررت على الرغم من ذلك أن أقاسي (كان على البروفسور «ن» أن يكون هنا ليتمتع بهذه الفُرجة)، بأن أؤجل تناول الحقنة، فذهبت إلى البحيرة.

ما هذه الصحراء. ما من صوت، ما من تنهيدة. لم يحلّ الغسق بعد، لكنه كامن في ناحية ما ويزحف عبر المستنقعات، عبر التلع في الأرض، عبر أرومة الأشجار... إنه يتقدم، يتقدم باتجاه مستشفى ليفكوفو... وأنا أزحف بدوري، مستنداً

إلى عصا (للحقيقة، لقد أصابني الوهن في هذه الأيام الأخيرة).

وها إنني أرى من يصل إليّ، وهو يطير من فوق الجسر باتجاه البحيرة، ومن دون أن يستخدم قدميه من تحت تنورته الواسعة، الملطخة: كانت عجوز ذات شعر أصفر... لم أفهم الأمر في البداية وحتى أني لم أشعر بالخوف. عجوز صغيرة، وماذا في الأمر؟ يبدو غريبا - لماذا، وفي هذا البرد، تخرج هذه العجوز حاسرة الرأس ولا ترتدي سوى قميص خفيف؟ من أين تأتي؟ من هي؟ ما إن تنتهي المعاينات عندنا، في مستشفى ليفكوفو، حتى ترحل عربات الفلاحين، ناقلة كل شخص إلى بيته، وعلى بعد عشرة «فراست» من الدائرة، لا يعود أحد موجوداً. لا شيء سوى الضباب، المستنقعات، الغابات! ومن ثم فجأة انتابني التعرق البارد الذي انثال على ظهري - لقد فهمت! العجوز الصغيرة لا تركض، لكنها تطير بالتحديد، من دون أن تطأ الأرض. حسناً! ليس هذا ما دفعني لأن أطلق صرختي، بل لأن العجوز كانت تحمل مذراة بين يديها. لماذا شعرت بهذا الرعب؟ لماذا؟ خرت على ركبتيّ، وذراعاي مرفوعتان، لأختبئ وراءهما كي لا أراها، من ثم، استدرت نصف استدارة وركضت باتجاه المنزل وأنا أعرج، كما لو أنني كنت أركض نحو ملجأ أمين، متمنياً فقط أن لا ينفجر قلبي وأن أكون في غرفتي الدافئة بأسرع وقت

ممكن، وأن أرى آنّا حية ترزق. . . وأن أجد المورفين.

ها أنا ذا.

يا للسخف. إنها هلوسة عديمة المعنى، هذا كل ما في الأمر. هلوسة طارئة.

١٩ تشرين الثاني (نوفمبر)

تقيؤ. إشارة سيئة.

حديثي الليلي مع آنّا في ٢١.

آنّا: إن المشرف على علم بالأمر.

أنا: حقاً؟ للأسف. لا أهمية للأمر.

آنّا: إن لم ترحل من هنا، للذهاب إلى المدينة، فسأشنق نفسي. هل تسمعني؟ انظر إلى يديك، انظر إليهما؟

أنا: ترتجفان قليلاً. لن يمنعني ذلك من العمل قليلاً.

آنّا: لكن انظر إليهما، تبدوان شفافتين. لنرَ. أصبح الجلد على العظم. . . انظر إلى وجهك قليلاً. . . اسمع يا سيريوجا، أتوسل إليك، إرحل من هنا. . .

أنا: وأنت؟

آنّا: ارحل. ارحل.. أنت في طريقك إلى قتل نفسك.

أنا: أعتقد أنك تبالغين قليلاً. أتعرفين، لا أنجح حقا في فهم لماذا وهنت بهذه السرعة. أنا مريض منذ أقل من سنة. ربما ذلك عائد إلى تكويني.

آنّا: (بحزن) آه لو أعرف كيف أعيد إليك الرغبة في الحياة! ربما أمنيريس، زوجتك، تستطيع ذلك؟...

أنا: لا... أبداً. لتهدأي قليلاً. أعترف بفضل المورفين الذي جعلني أتخلى عنها. وبأنك حللت مكانها.

آنّا: يا إلهي، ما العمل؟

كنت أعتقد أن النساء، مثل آنّا، غير موجودات إلا في الروايات. لذلك، إن شفيت يوماً، فسأربط مصيري بمصيرها إلى الأبد. ولتبقَ، تلك الأخرى، في ألمانيا.

٢٧ كانون الأول (ديسمبر)

ها قد مر وقت طويل لم أمسك فيه هذا الدفتر. متدثر بشكل كامل، والجياد تنتظر. لقد غادر بومبغارد غوريلوفو وبعثوا بي للحلول مكانه. لقد عيّنوا طبيبة بدلاً مني.

ستبقى آنّا هنا. ستأتي لزيارتي.

حتى ولو كنت على بعد ثلاثين فرستا.

قررنا بصرامة بأن أطلب في الأول من كانون الثاني (يناير) إجازة مرضية لمدة شهر، سأذهب خلاله إلى موسكو عند البروفسور. سأوقع التزاما آخر وسأمضي هذا الشهر في عيادته لأتألم من العذاب غير الإنساني.

وداعاً يا ليفكوفو. إلى اللقاء يا آنّا.

العام ١٩١٨.

كانون الثاني (يناير)

لم أغادر. لا أستطيع أن أبتعد عن إلهي الصغير، الكريستال الذائب.

سأموت خلال العلاج.

أضف إلى ذلك، بدأت أفكر أنه من غير المجدي أن أعالج نفسي.

١٥ كانون الثاني (يناير)

تقيأت هذا الصباح.

ثلاث حقن تحتوي على أربعة بالمئة من المحلول عند بزوغ الصباح.

ثلاث حقن تحتوي على أربعة بالمئة من المحلول لهذه الليلة.

١٦ كانون الثاني (يناير)

إنه يوم إجراء العمليات الجراحية، إذن، سأمتنع عنه من الليل وحتى السادسة من مساء الغد.

عند الغسق - وهي اللحظة الأرعب - وعندما كنت قد عدت إلى شقتي، سمعت بوضوح صوتاً رتيباً حاملاً الوعيد، يتكرر:

«سيرغي فاسيليفيتش.»

بعد الحقنة اختفى كل شيء سريعاً.

عاصفة ثلجية عنيفة، ما من عزاء. قرأت، طوال الوقت الذي امتنعت فيه عن تعاطي الحقن، كتباً في التحليل النفسي، سبّبت لي ضغطاً نفسياً مرعباً. لقد تهت، لا أمل لي.

أصبحت أخاف من أقل ضجة، يتراءى لي الناس مرعبين حين أكون في لحظات الامتناع هذه. أخاف منهم. في لحظات السعادة أحبهم كلهم وإن كنت أفضل الوحدة.

هنا، عليّ أن أكون حذراً - هنا، ضابط الصحة وممرضتان. عليّ أن أنتبه جيداً كي لا أخون نفسي. أصبحت خبيراً في عدم إظهار أي شيء. لن يعرف أحد شيئاً ما دام لديّ احتياطي من المورفين. أحضر المحلول بنفسي أو أرسل إلى آنا أمراً عندما أريد. ذات مرة، حاولتْ بحماقة أن تستبدل محلولاً ذا نسبة ٥ بالمئة بمحلول ذي نسبة ٢ بالمئة. حملته بنفسها من ليفكوفو، في البرد، وفي عز عاصفة ثلجية.

إثر هذا الأمر، تجادلنا تلك الليلة، بقسوة. أقنعتها بأن لا تقوم بالعمل مجدداً. أخبرت العاملين هنا بأنني مريض. فكرت جاهدا لأخترع مرضاً ما. قلت بأنني مصاب بروماتيزم في ساقيّ وبأني أعاني من «نوراستينيا» (منهك عصبياً) حادة. أخبرتهم

أنني سأرحل في شهر شباط (فبراير) في إجازة إلى موسكو كي أتعالج. كل شيء يمضي على أكمل وجه. لا مشاكل في العمل. أتجنب إجراء العمليات في الأيام التي تنتابني فيها حالات التقيؤ المتعذر كبتها والتي تصاحبها الحازوقة. لهذا السبب، شخصّت بنفسي أنني مصاب بالتهاب في المعدة أيضاً. آه، بدأ الأمر يصبح صعباً كي يتحمله شخص واحد!

الطاقم هنا يبدو رحيماً جداً، لدرجة أنه يدفعني لأخذ هذه الإجازة.

الشكل الخارجي: ضعيف، شاحب مثل شمعة. أخذت حماماً ومن ثم زنت وزني فوق ميزان المستشفى. في العام الماضي كنت أزن ٦٥ كلغ ونصف، أما اليوم فستة وخمسين كلغ. ارتعبت حين شاهدت إبرة الميزان، من ثم مضت الفكرة.

ثمة دمامل لم تتوقف عن الظهور على ترقوتي كما على ساقيّ. لا أجيد تحضير المحلول بطريقة معقمة، زد على ذلك، أنني حقنت نفسي لثلاث مرات على الأقل بإبرة لم أغلها، إذ كنت مستعجلاً على الخروج.

إنه أمر غير مقبول.

١٨ كانون الثاني (يناير)

أصابتني الهلوسة التالية:

أتوقع، عبر النوافذ السوداء، ظهور كائنات باهتة. أمر لا يحتمل. لا توجد غير ستائر معدنية. أخذت غازاً من المستشفى ورششته على النافذة. لم أجد تفسيراً لهذا الأمر.

ليذهبوا إلى الجحيم في كل الأحوال. هذا صحيح، لماذا، في نهاية النهايات، عليّ أن أجد مبرراً لكل فعل من أفعالي؟ هذا صحيح. لقد أصبح الأمر نوعاً من العذاب، لم تعد حياة!

هل أعبّر عن أفكاري بوضوح؟

برأيي، أقوم بذلك.

الحياة؟ أية سخرية!

١٩ كانون الثاني (يناير)

اليوم وخلال فترة الاستراحة، بين المعاينات، وبينما كنا نرتاح وندخن في الصيدلية، أخبرنا، مأمور الصحة - وهو

يمزج مساحيقه - ولا أعرف لماذا كان يضحك - بأن سيدة، مأمورة صحة أيضاً، مدمنة على المورفين لم يكن باستطاعتها الحصول عليه، كانت تبتلع مستخلص الأفيون في كؤوس ليكور نصف ممتلئة. لم أعرف أين أصوب نظري وهو يروي هذه القصة المرعبة. ما المضحك في الأمر؟ إنني أكرهه. ما المضحك في هذا الأمر؟ ما هو؟

غادرت الصيدلية مثل لص.

«ما الذي تجدونه مضحكا في مرض مماثل؟...»

لكنني ضبطت نفسي، ضبط...

وأنا في هذه الحال، من المفيد أن لا يعامل المرء الناس باستعلاء.

آه، من مأمور الصحة! إنه قاس مثل هؤلاء المحللين النفسيين الذين لا يعرفون مساعدة المرضى بشيء، بلا شيء أبداً.

بلا شيء أبداً.

بلا شيء.

كُتبت هذه الأسطر الأخيرة وأنا في حالة من الامتناع، لذلك تحوي الكثير من الأمور غير العادلة.

فجأة ظهر نور القمر. تمددت بعد أزمة من التقيؤ، أشعر بالوهن. لا أستطيع رفع يدي عالياً فكتبت أفكاري بالقلم. أفكار صافية وفخورة بنفسها. سأكون سعيداً لعدة ساعات. أمامي، هناك النوم الذي ينتظرني. فوقي، هناك القمر الذي يحمل هالة. لا شيء يثير الرعب بعد تناول الحقنة.

١ شباط (فبراير)

جاءت آنّا. كانت صفراء شاحبة، مريضة.

كانت في أقصى التوتر بسببي. على أطراف أعصابها.

نعم، يتحمل ضميري خطيئة كبرى.

وعدتها بأن أرحل في منتصف الشهر.

هل سأفي بوعدي؟

نعم. سأفي به.

إن بقيت حياً.

٣ شباط (فبراير)

هذه هي الجبال الروسية. جبال من الجليد اللامتناهي، التي تشبه تلك الجبال التي يجوبها «كي»[1]، بعربته، كما في الحكاية التي قرأتها في طفولتي. إنه طيراني الأخير فوق هذه الجبال وأعرف ماذا ينتظرني هناك. آه، يا آنّا، ستصابين بالقنوط عاجلاً إذا ما كنت قد أحببتني....

١١ شباط (فبراير)

هذا ما قررته. سأزجه رسالة إلى بومبغارد. لماذا إليه بالضبط؟ لأنه ليس طبيباً نفسانياً، ولأنه شاب ولأنه كان زميلي في كلية الطب. إنه في صحة جيدة، صحيح هو قوي لكنه هادئ الطباع، إن لم أكن مخطئاً. أتذكره جيداً. ربما كان أرفع من ذلك كله... سأجد عنده القليل من الرحمة. سيخترع لي حجة ما. ليس عليه سوى اصطحابي إلى موسكو. لا أستطيع الذهاب عنده. لقد بدأت إجازتي. سأبقى ممدداً. لن أذهب مجدداً إلى المستشفى.

---

(١) كي، كما في قصة «ملكة الثلج» لأندرسن.

لقد افتريت على مأمور الصحة. حسناً، كان يضحك... ليس للأمر أي أهمية. جاء ليستعلم عن أخباري. اقترح أن يجري لي معاينة.

لم أسمح له بذلك. هل من حجج بعد كي أرفض؟ لا أريد أن أجد المزيد منها.

ذهبت الرسالة الموجهة إلى بومبغارد في طريقها.

يا أيها البشر، هل سيساعدني أحدكم؟

بدأت بإطلاق تأوهات مثيرة للعواطف. وإن قرأ أحدهم، صدفة، هذه السطور، سيقول عنها إنها مصطنعة. لكن أحداً لن يقرأها.

قبل أن أكتب إلى بومبغارد لم أتوقف أبداً عن تذكر كل شيء. تذكرت، بخاصة، حادثة محطة القطارات في موسكو، في نوفمبر الماضي، عندما كنت هارباً من العاصمة. كان مساء مرعباً. كنت أحقن نفسي، في المرحاض، بالمورفين الذي سرقته. كان عذاباً حقيقياً. كانوا يحاولون خلع الباب، والأصوات توبخني كما لو أنها من حديد. شتموني لأنني شغلت المكان طويلاً. عدت وشاهدت هذه الأذرع التي تنتفض، وهذا الباب الذي كان على أهبة أن ينكسر وأن يفتح واسعاً على مصراعيه، في أي لحظة.

منذ تلك اللحظة بدأت الدمامل بالظهور.

لقد بكيت في تلك الليلة وأنا أتذكر ذلك.

الثاني عشر من هذه الليلة

بكيت مرة جديدة. ما معنى هذا الضعف وهذا العار في الليل؟

١٩١٨. فجر ١٣ شباط (فبراير). غوريلوفو.

أستطيع أن أهنئ نفسي: ها أنا أحيا، من دون حقنة، منذ ١٤ ساعة. ١٤. يا له من رقم لا يصدق. يبزغ النهار عكراً، باهتاً. هل سأكون في صحة جيدة بعد لحظات؟

فكرت جيداً. لست بحاجة لا إلى بومبغارد ولا لأي شخص غيره. من المعيب أن أطيل حياتي بعد، ولو للحظة واحدة. من المستحيل إطالة حياة مماثلة. الدواء في متناول يدي. كيف لم أفكر في ذلك من قبل؟

حسناً يا عزيزي، هيا بنا. لست مديناً لأحد بشيء. لم أدمر سوى نفسي بهذه القضية التي تبدو من غير مخرج. وآنّا؟ ماذا يمكنني أن أفعل لها بعد؟

سيشفي الزمن الجراح، مثلما غنى آمن. بالنسبة إليها كل شيء بسيط وسهل. سأرسل الدفتر إلى بومبغارد فقط. هذا هو كل شيء...

الفصل الخامس

قرأت هذه الملاحظات التي كتبها سيرغي بولياكوف، في فجر الرابع عشر من شباط (فبراير) من العام ١٩١٨، في دسكرة بعيدة. تجدونها هنا بأكملها من دون أدنى تعديل. لست طبيبا نفسانيا، لذلك لا أستطيع القول، وبيقين، ما إذا كانت صالحة ومفيدة؟ برأيي هي كذلك.

اليوم وبعد مرور عشر سنوات، خبا وهج الشفقة والرعب اللذين أوحت إليّ بهما هذه الملاحظات. هذا أمر طبيعي. لكن بعد أن أعدت قراءتها اليوم، وفي حين أن جثمان بولياكوف قد أصبح غباراً، وبعد أن اندثرت الذكرى التي كنت أكنها له بالكامل، أجد أن الاهتمام بهذه الملاحظات لم تخب. هل لأنها على درجة كبيرة من الفائدة؟ آخذ على عاتقي كامل المسؤولية في الجزم والتأكيد بأنها هكذا. ماتت آنّا ك. من جراء التيفوس، في العام ١٩٢٢، في ذلك المكان ذاته حيث

كانت تعمل. أمنيريس - زوجة بولياكوف الأولى - لا تزال خارج البلاد. لن تعود إلى هنا أبداً.

هل أستطيع أن أنشر هذه الكتابات التي أعطوني إياها؟

أستطيع ذلك. سأنشرها.

الطبيب بومبغارد.

خريف العام ١٩٢٧.

هذا الكتاب

بعد عام من تلك المحادثة، عُيّن في المستشفى البلدي التابع لتلك المدينة. يومها، كان بولغاكوف قد أصبح مدمن مخدرات (على المورفين). السبب الرئيس لطلبه تبديل مكان عمله «اعتماده الذي لا يقاوم» على «الكريات الذائبة». كان ذلك معروفاً من قبل الجسم الطبي بأكمله، في مركز عمله السابق. إذ إن معالجته، لأحد الأطفال هناك - استعمل في العلاج مادة تسمى «خزع الرغامى» - سبّب له نوعاً من الحساسية، لم يكن غير المورفين قادراً على إخماده وتهدئته.

